

قصة أصحاب الغار

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم .

قال رجل منهم : اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بي الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما^(١) . فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت (والقدح على يدي) انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي ، فاستيقظا فشربا غبوقهما : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحب الناس إليّ (كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء) ، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها (فلما قعدت بين رجليها) قالت : يا عبد الله ، اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ وتركت الذهب الذي أعطيتها : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

(١) الغبوق : شراب المساء ، والصبح : شراب الصباح .

وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجراً ، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فشئت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أدي إليّ أجري فقلت : كل ما ترى من أجرك : من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : يا عبد الله ، لا تستهزئ بي ، فقلت : لا أستهزئ بك ، فأخذته كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون» (١) .

دروس من القصة :

من الدروس : جواز التوسل إلى الله بصالح الأعمال . فقد توسل الأول بربه بوالديه ، وتوسل الثاني بمخافته من الله ، تلك المخافة التي دفعته إلى ترك الفاحشة ، وتوسل الثالث بحفظه لأموال أجيره ، فثمر له ماله ، وعندما عاد أعطاه مالا عظيماً .

ومن الدروس : أهمية الدعاء عند حلول الكرب والبلاء ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۖ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٣) .

فالعبد عبادته ، والرد المباشر عليهم منه وحده . لم يقل : فقل لهم : إني قريب ، إنما تولى بذاته العلية الجواب على عبادته بمجرد السؤال ، ولم يقل أسمع الدعاء ، إنما عجل بإجابة الدعاء : أجيب دعوة الداع إذا دعان (٤) .

في الحديث عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيها خيراً فيردهما خائبين» (٥) .

والناس قد يغفلون عن الدعاء في ساعات الرخاء ، وفترات الغفلة . أما حين تلجئهم الشدة ، ويضطرهم الكرب ، تزول عنهم غشاوة الغفلة ويرجعون إلى ربهم منيبين مهتماً يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين .

(١) البخاري (٣٤٦٥) ، ومسلم (٢٧٤٣/ ١٠٠) .

(٢) غافر : ٦٠ .

(٣) البقرة : ١٨٦ .

(٤) في ظلال القرآن : سيد قطب ١/ ١٧٣ .

(٥) أبو داود (١٤٨٨) ، والترمذي (٣٥٥٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٥) .

والمضطر الذي أوشكت سفينته على الغرق ، أو الذي سقط في متهاة لا يعرف كيف يتخلص منها ، أو دخل غارا للمبيت فانحدرت صخرة فسدت عليه الغار، ينظر حواليه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص . لا قوته ، ولا قوة في الأرض تنجده . وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى ، وكل ما كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى ، في هذه اللحظة لا يجد له ملجأ إلا الله فهو الذي ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾^(١) .

ومن الدروس : أن الله - سبحانه وتعالى - يقبل العمل ، مهما كان نوعه ، عندما يفعله صاحبه لوجه الله ، فهؤلاء لم يدعوا الله بصلاة أو صيام أو حج أو زكاة ، وإنما دعوه بالأعمال التي يقوم بها كل إنسان صالح في تعامله مع الأحداث .

ومن الدروس : أن الله - سبحانه وتعالى - يريد أن يغفر للعبد ، ويسارع لنجده ، فما أنأهوا دعاءهم ، حتى استجاب الله الدعاء وفرج عنهم .

ومن الدروس : أن يجعل الإنسان بينه وبين ربه أعمالا صادقة مخلصه ، يدخرها ليوم عصيب . فموقف صادق واحد قد ينجي الإنسان من كرب عظيم في الدنيا والآخرة .

(١) النمل : ٦٢ ، وانظر: في ظلال القرآن : سيد قطب ٥/ ٢٦٥٨ .

قصة الراهب والعالم

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فذُل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فذُل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله - تعالى - فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله - تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط . فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم (أي حكما) فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له . فقياسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » ^(١) .

دروس من القصة :

من الدروس : سعة رحمة الله بقبول توبة التائبين ، مهما كثرت ذنوبهم : ﴿ قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۖ ﴾ ^(٢) .

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية . كائنة ما كانت . وإنها الدعوة للأوبة . دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال . دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله .

(١) البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٤٦/٢٧٦٦) واللفظ لمسلم .

(٢) الزمر : ٥٣ .

إنه الإنسان ، وقد أسرف في المعصية ، ولج في الذنب ، وأبق عن الحمى ، وشرد عن الطريق ، ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية . وظلالها السمحة المحيية . ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة . التوبة وحدها . الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع ، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان ^(١) .

ومن الدروس : فضل العالم على العابد ، فقد أفتى العابد بجهل ، وأفتى العالم بعلم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) .

والعلم الحق هو المعرفة . هو إدراك الحق . هو تفتح البصيرة . هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود . وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن ، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس ^(٣) .

ومن الدروس : أن المؤمن يحتاج إلى أرض خير يعبد فيها الله ، وإلى بيئة صالحة تحثه على الخير ، وإلى البعد عن أرض السوء التي تغري الإنسان بارتكاب الفواحش والمنكرات . والانتقال من بيئة كافرة إلى بيئة أخرى صالحة ، تربط المؤمن بمؤمنين آخرين ، يتعاطف معهم ، ويلقاهم على حديث الإيمان وأفعال الإيمان .

فيصلي معهم وتصبح الصلاة عادة . ويستمع معهم إلى القرآن ، ويصبح استماع القرآن عادة ، ويتواد معهم وتصبح المودة عادة . ويتحمل معهم الكروب ، ويصبح احتمال الكروب في سبيل العقيدة عادة ، وينشئ مجتمعاً تعيش فيه التصورات والفضائل الإسلامية ، وبذلك تصبح العادة عملاً فردياً وارتباطاً اجتماعياً في آن واحد ، فيضمن لها الدوام والاستمرار ^(٤) .

ومن الدروس : أن هذا الرجل دخل الجنة ولم يعمل خيراً قط ، وكما تخاصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فما زال هذا الخصام موجوداً حتى اليوم بين قوم يرون أن الإيمان اعتقاد وعمل ، وقوم يرون الإيمان اعتقاد بالله ورسوله ، وقد يدخل الجنة مؤمن لم يعمل خيراً قط ^(٥) .

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٥ / ٣٠٥٨ .

(٢) الزمر : ٩ .

(٣) المرجع السابق ٥ / ٣٠٤٢ .

(٤) التربية ودورها في تشكيل السلوك ، للمؤلف .

(٥) يراجع في ذلك كتاب : دعاة لا قضاة : الإمام حسن الهضبي .

(٣)

قصة أصحاب الأخدود

لقد كان في قصصهم عبرة :

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلاما أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاما يعلمه ، فكان في طريقه - إذا سلك - راهب ، فقعده إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مراً بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر . فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم : الساحر أفضل أم الراهب أفضل ، فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره . فقال له الراهب : أي بني ، أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى .

المحنة سنة الدعوات :

وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ . وكان الغلام يبرئ الأكمه ^(١) . والأبرص ، ويداوي الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني فقال : إني لا أشفي أحدا ، إنما يشفي الله - تعالى - . فإن آمنتم بالله - تعالى - دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله - تعالى - فشفاه الله - تعالى - . فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس . فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك؟

(١) الذي خلّق أعمى .

قال : ربي .

قال : ولك رب غيري؟

قال : ربي وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجيء بالغلام فقال له الملك : أي بني ، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ! فقال : إني لا أشفي أحدا ، إنما يشفي الله تعالى . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب فقبل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقبل له : ارجع عن دينك ، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقبل له : ارجع عن دينك ، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه . فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم أكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل ، فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك؟ فقال : كفانيهم الله تعالى . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور^(١) . وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه . فذهبوا به فقال : اللهم أكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل أصحابك؟ فقال : كفانيهم الله تعالى .

باسم الله رب الغلام :

فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به . قال : ما هو؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهما من كنائني ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنائنه ، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوق السهم في صدغه فوضع يده في صدغه فمات . فقال الناس : (آمننا برب الغلام) ، فأتي الملك فقبل له : أرأيت ما كنت تحذر ، قد والله نزل بك حذر . قد آمن الناس .

(١) سفينة صغيرة .

أصحاب الأخدود :

فأمر بالأخدود بأفواه السُّكك^(١) . فخذت وأضرم فيها النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمه اصبري فإنك على الحق^(٢) .

معالم تربوية :

تناولت القصة بعض التفاصيل في قصة أصحاب الأخدود، التي خلّدها القرآن الكريم في سورة البروج ، وهي حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل حين .

فالقرآن الكريم وهو يتناول هذه القصة ، كان يخطط بها خطوطا عميقة في تصور طبيعة الدعوة إلى الله ، ودور البشر فيها ، واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع - وهو أوسع رقعة من الأرض ، وأبعد مدى من الحياة الدنيا - وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق ، ويعدّ نفوسهم لتلقي أي من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم ، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور .

إنها قصة فئة آمنت بربها ، وأعلنت حقيقة إيمانها . ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين بطاشين مستهترين بحق (الإنسان) في حرية الاعتقاد بالحق والإيمان بالله العزيز الحميد ، وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلّى الطغاة بآلام تعذيبها، ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالحرق !

وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة ، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة ، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة ، ولم تفتن عن دينها ، وهي تحرق بالنار حتى تموت .

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة ، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعان الموت بهذه الطريقة البشعة ، وانطلقت من قيود الأرض وجوازبها جميعا ، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها .

(١) جمع سكة وهي الطريق .

(٢) مسلم (٣٠٥/٣) ، والترمذى (٣٣٤٠) .

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيرة الرفيعة الكريمة كانت هناك جبال جاحدة شريرة مجرمة لئيمة . وجلس أصحاب هذه الجبال على النار . يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون . جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار، والأناسي الكرام يتحولون وقودا وترابا . وكلما ألقى فتى أو فتاة ، صبية أو عجوز ، طفل أو شيخ ، من المؤمنين الخيرين الكرام في النار، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة ، وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء !

هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبال الطغاة وارتكست في هذه الحمأة ، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف ، بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط ، فالوحش يفترس ليققات ، لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسة !

وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين وتحررت وانطلقت إلى ذلك الأوج السامي الرفيع ، الذي تشرف به البشرية في جميع الأجيال والعصور .

في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان . وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية ، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية ، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان !

ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث، كما لا تذكر النصوص القرآنية ، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة ، كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط . أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر .

ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة؟

أفهيكذا ينتهي الأمر، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان ؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأخطود؟ بينما تذهب الفئة الباغية ، التي ارتكبت إلى هذه الحمأة ، ناجية؟

حساب الأرض يحيك في الصدر شيئا أمام هذه الخاتمة الأسيفة !

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى ، ويصرهم بطبيعة القيم التي يتحلون بها ، وبمجال المعركة التي يخوضونها .

القيمة الكبرى في الميزان :

إن الحياة وسائر ما يلبسها من لذائذ وآلام ، ومن متاع وحرمان ، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان ، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة ، والنصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة. فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة .

إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة ، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان . وإن النصر في أرفع صورته هو انتصار الروح على المادة ، وانتصار العقيدة على الألم ، وانتصار الإيمان على الفتنة ، وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم ، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة ، وانتصرت على الفتنة انتصارا يشرف الجنس البشري كله في جميع الاعصار، وهذا هو الانتصار .

إن الناس جميعا يموتون ، وتختلف الأسباب ، ولكن الناس جميعا لا ينتصرون هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع ، ولا يتحررون هذا التحرر ، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق . إنها هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت ، وتنفرد دون الناس في المجد ، المجد في الملأ الأعلى ، وفي دنيا الناس - أيضا - إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال !

لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير ، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ؟

إنه معنى كريم جدا ، ومعنى كبير جدا ، هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض ، ربحوه وهم يجدون مس النار، فتحترق أجسادهم الفانية ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار !

مجال المعركة :

ثم إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها، وليس هو الحياة الدنيا وحدها . وشهود المعركة ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال . إن الملأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض

ويشهدها ويشهد عليها، ويزنها بميزان غير ميزان الأرض في جيل من أجيالها ، وغير ميزان الأرض في أجيالها جميعا .

والملا الأعلى يضم من الأرواح الكريمة أضعاف أضعاف ما تضم الأرض من الناس ، وما من شك أن ثناء الملا الأعلى وتكريمه أكبر وأرجح في أي ميزان من رأي أهل الأرض وتقديرهم على الإطلاق !

وبعد ذلك كله هناك الآخرة ، وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض ، ولا ينفصل عنه ، لا في الحقيقة الواقعة ، ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة .

فالمعركة إذن لم تنته ، وخاتمتها الحقيقية لم تحج بعد ، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح ، لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد ^(١) .

أما الدروس التربوية التي نستتجها من هذه القصة فهي :

١- القصص : أسلوب مهم من وسائل التربية الإسلامية . فهي تسهم بطريقة عرضها ، وإدارة حوادثها ، ومن خلال توصيل المعلومات والحقائق بطريقة شيقة ، باستشارة نفوس السامعين وتجعلهم أكثر ميلا للتقليد والافتداء بأشخاص القصة : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٢) .

٢- ومن الدروس أن المحنة من سنن الدعوات ، وليس صحيحا أن المحنة لا تقع إلا نتيجة خطأ يرتكبه الدعاة ، ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ^(٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ^(٤) .

إن الإيمان ليس كلمة تقال ، إنما هو حقيقة ذات تكاليف ، وأمانة ذات أعباء ، وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفي أن يقول الناس : آمنا وهم لا يتركون لهذه الدعوى ، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم .

(١) معالم في الطريق : سيد قطب ، ص ١٧٣-١٧٧ .

(٢) يوسف : ١١١ .

(٣) العنكبوت .

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية، في ميزان الله - سبحانه ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (١).

إن الإيمان أمانة الله في الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة ، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص .

إنها أمانة الخلافة في الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة ، فهي أمانة كريمة ، وهي أمانة ثقيلة ، وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء .

والفتنة أنواع :

من الفتنة : أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ، ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه ، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ، ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان ، وهذه هي الصورة البارزة للفتنة.

وهناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعا . وقد يهتفون به ليسلم أو ليستسلم ، وينادونه باسم الحب والقرابة .

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين ، بينما هو وإخوانه لا يملكون من أمر الحياة شيئا .

وهناك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقا في تيار الضلالة، وهو وحده موحش غريب طريد .

وهناك الفتنة الكبرى أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة . وجاذبية الأرض، وثقله اللحم والدم ، والرغبة في المتاع والسلطان ، أو في الدعة والاطمئنان ، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاء ، مع

(١) العنكبوت .

المعوقات والمثبطات في أعماق النفس ، وفي ملابسات الحياة، وفي منطق البيئة ، وفي تطورات أهل الزمان!

فإذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله . كانت الفتنة أشد وأقسى . وكان الابتلاء أشد وأعنف . ولم يثبت إلا من عصم الله . وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤمنون على تلك الأمانة الكبرى ، أمانة السماء والأرض ، وأمانة الله في ضمير الإنسان .

جاء في الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإذا كان في دينه صلابة زيد له في البلاء» ^(١) .

٣- ومن الدروس : أن الهم الأكبر للدعاة هو انتصار الدعوة ، قبل أن يكون النجاة لأشخاصهم ، فالغلام هنا يرشد الطاغية إلى أمر يتمكن فيه من قتله ، ولكنه الأمر الذي تنتصر به الدعوة ، فيما يتصوره بعض الناس نوعاً من البلاء ، قد يكون سبباً لنصر الدعوة .

٤- ومن الدروس : أن الناس جميعاً يموتون ، ولكن أصحاب الدعوات وحدهم الذين يتفردون في المجد في الدنيا والآخرة .

٥- ومن الدروس : أن الله يهيئ لدينه بين الفترة والفترة من يجدد للناس أمر دينهم، كما هيأ الغلام ليكون سبباً في إيمان قومه .

قصص ذكرها القرآن الكريم وهو يربي المؤمنين . وما على الدعاة إلا الوعي والالتزام والتطبيق .

(١) ابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحد / ١٧٢، ١٧٤ .